الندم بين البناء والهدم عند الشعراء الجاهليين

م.د.آزاد عبدول رشيد* و م.د.نوال نعمان كريم أحمد*

تأريخ التقديم: ٢٠١٨/٩/١٢ تأريخ القبول: ٢٠١٨/٩/١٧

مقدمة:

قد يسلك الإنسان سلوكاً يفتقر فيه إلى بعد النظر والتفكير، لتسفر نتائجه عن عواقب وخيمة، تتعرض له حياته لما لا يحمد عقباه، وتخلق له أزمة نفسية جراء ذلك السلوك غير المدروس، المقرن بالتسرع في إصدار القرار المنفرد من دون أخذ التدابير الوقائية أو التحوط من مغبة الوقوع في مشكلة عارمة إثر ردّ فعل ذاتي، فيعض أصابع الندم جراء عدم التريث أو إبداء المشورة بمن لهم تجربة في الحياة، ودراية كبيرة في مثل هذه الأمور التي تحتاج إلى طبيب مجرب، ودواء شافٍ وعلاج لهذا الكلم الذي ينزف دماً في دواخل الذات المثقلة بدموع الحسرة والتوجع، وهي تبحث عن مخرج للخلاص من هذه الأزمة للنجاة، لكي لا تترك أزمته التي رافقته أثراً سلبياً عليه، لأنها قضية قدرية لا يمكن تجاوزها إلا بالصبر و الجلد بأيمان مطلق بقضاء الله وقدره، شره وخيره، حتى اختمرت في مخيلته الفكرة الصائبة، إن لكل سبب مسبباً ولكل مشكلة حلاً.

فالندم: حالة شعورية لا إرادية يشعر الإنسان من خلالها باليأس والإحباط والاعتراف الشخصي بالخطأ فضلاً عن الإيمان المطلق بالقضاء والقدر ولكنه يعيش مشكلة بغربة روحية قاتلة في ضل ازمة نفسية موحشة .

ويبدو أن هذه الأزمة النفسية هي التي تجرح كبرياءه، وتهز شخصيته، لذا نجدهُ يكابر من أجل الحفاظ على مقومات توازنه الشخصي والاجتماعي معاً، محاولاً عودته إلى وضعه الطبيعي الذي كان يتمتع به تحت ضل حياة آمنه يسودها الاستقرار النفسي والعائلي.

* قسم اللغة العربية/ جامعة السليمانية .
* قسم اللغة العربية/ جامعة السليمانية .

كما أن البحث عن الحلول أمر طبيعي وحق مشروع لمن وقع في شباك معترك الحياة إثر خطأ طارئ ارتكبه الإنسان لم يكن بالحسبان، لأنه مشغول في أمور يعيدها في نظره تحمل مواقف سامية لا يمكن تجردهُ منها او تخليهُ عن مبادئها مهما كلف الأمر ذلك من آثار سلبية على الشخص الذي خاض غمار هوى معتركه من أجل إثبات رجولته وإزهاق باطل وإحقاق حق، صوناً للعزة والكرامة، فهو لا يرتضي لنفسية إلا ذلك لأنها في نظره ثوابت يعزز فيها وجوده وكيانهُ وسط قومه وقبيلته لأنه في مجتمع يفتقد إلى سلطة مركزية حاكمة او قانون دستوري يحفظ حقوقه، ويدافع عن شموخه وكبريائه لذا يلجأ للسيف في اغلب الأحيان ليكن فيصلاً لكل اعتداء سافر سببه حق ضائع مغدور.

فجاءت قصائد شعراء ما قبل الإسلام تدوي صدى بجرس موسيقي صاخب، مشتد لغاية، منفعل لقضية، فلا تنطفئ نار غضبهم إلا بتحقيق المأرب أو الغاية التي يكابرون من اجلها، ويضحون لتحقيقها في اغلب الأحيان، وقد يحصل العكس من ذلك في أحايين أخرى للذين ينتابهم شعور الندم والاعتراف بالخطأ، وهم يحملون التبريرات التي يعدونها الوسيلة الأفضل لفك أزماتهم، والبلسم الشافي لكلومهم.

جاء بحثنا ليدرس هذه الظاهرة، أي: (الندم) من خلال إفرازاته النفسية، وما يتعلق منه بالأنا، الذي أدى إلى هذه النتيجة، ورموزها، والآثار المترتبة عليه، من المعاناة أو الشعور بالفخر والانتصار، أو المؤدية منه إلى البناء أو العزوف عنه والهدم.

الأنا، إفرازاتها:

تلوح بيارق أو راية (الأنا) أثناء قصائد الشعراء في بداية الأمر، وهي تحمل مفردة الضمير، وتظن أنها تتسم بالمستوى الكمالي المتشرب بقيم المجتمع ومثله، وهي تنادي برفع الحيف ومقابلة الثأر بالثأر تحت شعار العين بالعين والسن بالسن والبادي اظلم [1].

كما أن لدواعي الشرف والعزة والكرامة خطوة كبيرة واهتمام منقطع النظير لأنها قيم عالية ومثل سامية، فهي خطوط حمراء وتحجم كل من حاول النيل منها أو التقليل من شأنها.

[1]- ينظر: المعمرون والوصايا، أبوحاتم سهل بن محمد بن عثمان الجشمي السجستاني (المتوفى : ٢٤٨ه)،الكتاب مرقم آلياغيرموافق للمطبوع، د. ت،ص١٨.

ونلمس في قصائد الندم الشعرية الأخرى انهيار مفردة (الأنا) بعد إطفاء ديون الحق، وردع كل ظالم، وقطع يد كل من تطاولت يده المساس بالشرف، فتبرز مفردة (أنت) وهي تحمل في طياتها كل دواعي العتب واللوم الموجهين إلى الذات المثقلة بالندم لا لمرور الزمن بقدر ما للذنب الذي ارتكبه، والذي لا يمكن علاجه إلا بالانصياع لأمر الواقع، والتأقلم مع الأفكار الجديدة المطروحة، المغايرة لأفكارهم السابقة.

إن القيم والمثل التي تربى عليها الإنسان عند صغره، هي من توجيه والديه وأفراد عائلته ومن التربية الاجتماعية التي تفرضها بيئته ومجتمعه فهي بمثابة أوامر ووصاية في سلطة داخلية في نفس الإنسان تراقبه وتوجه اليه الأوامر والنواهي في داخله كما تنزل به عقوبة مؤلمه هي الندم والأسف وتأنيب الضمير عند ارتكاب الإنسان ما يخالف صوت ضميره [١] .

وقد يأتي الندم بسبب مخالفة الشرائع الإلهية والقوانين الإدارية، وبسبب تبدل الظروف من حال إلى حال ولا سيما عندما يظن الإنسان أن حساباته دقيقة في وقت ما، لكنها تأتي مغايرة لتوقعه، لذا يشعر بالندم في هذه النتائج العلمية فبذلك يرضخ للأمر الواقع ويسعى لبديل ملائم يخفف أزمته، ويهدئ أعصابه وهذا ما جسده عدي بن مرينا حين وجهه خطاباً مباشراً إلى عدي بن يزيد في رسالة تحذيرية، إذ يوصيه بالصبر والجلد، والصمود أمام الأمور والمواقف الصعبة، و يدعوه إلى الثبات مهما كلف الأمر ذلك، مذكراً إياه مواقفه ومواقف قومه، أولئك الذين ضحوا بأجسادهم من أجل نصرته من دون أن تكون هناك غاية أو منفعة شخصية بقدر ما أن يحصل على الجاه والغنى، ونود إعلامكم أن حصولك على هذه المكانة العالية والدرجة الرفيعة ليست هي من جهدك الخاص، وإنما هي بمجهودنا، وبواسطتنا، لذا سوف تندم وتخسر لنكرانك الجميل وعدم اعترافك بالمعروف وكأنه يريد أن يقول: هل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟ فجاءت رسالته تحمل في مضمونها كل دواعي التحذير والإنذار المبكر قبل الوقوع في أمر غير محمود، وهي حكمة صائبة انتزعها الشاعر من تجاربه وممارسته الشخصية في الحياة وهي لا

[١]- ينظر: محاضرات في علم النفس : ٢٩٦ .

تصدر إلا من عقل نير ورأي سديد ناصح [١] فيظل يعض أصابع الندم فتغلق أبواب أمله، وفي محاولة منه فك أزمته ولكن النفس ازدادت اغتراباً لأنها وقعت في شباك اليأس والإحباط في وقت لا يفيد فيه الندم، إذ يقول [٢]:

ألا أبلغ عدياً من عدي فلا تجزع و إن رثت قواكا
هياكلنا تتبر لغير فقرٍ ليُحمد أو يتم به غناكـأ
فإن تظفر فلم تظفر حميداً وإن تعطب فلا يبعد سواكـأ
ندمتُ ندامة الكُسعى لما رأت عيناك ما صنعت يداكا

لقد جمع الشاعر صورتين شعريتين في آن واحد (البيانية والحسية) وفي بيت واحد من المقطوعة الشعرية ألا وهو البيت الأخير اذ نراه يعتمد في تصويره لحالة الندم صوراً من التشبيه المفرد في قولة (ندمت ندامة الكُسعى لما) فهو ومؤكد لحذف أداة التشبيه، و مفصل لوجود وجه التشبه، مقرناً هذه الصورة بصورة حسية بنوعيها (البصرية واللمسية) وهاتان الحاستان مهمتان في نقل الصورة عند الشعراء[٣] الجاهليين فكانت أقرب إلى الحقيقة والصواب في قوله (رأت عيناك ما صنعت يداكا) وتزداد شدة الألم والندم حين يستذكر صورة القتل المتعمد، فهو اعتراف ذاتي، بخطئه لتسرعه وغضبه، وعدم احسانه في تقدير الموقف كان سبباً لإصابته بالندم .

وقد يخرج الكلام من أفواه الشعراء وكأنهم في غفلة لا يعرفون مردوده السلبي نحوهم، ولا يفكرون سوء عاقبته عليهم لذا نجدهم يتخبطون في أمورهم، ويتشبثون في اختيار البديل الناجح الذي يخرجهم من مأزقهم الضيق، وموقفهم الصعب مع من تجافوا عنهم بسبب غضبهم وانفعالهم حتى نطقت ألسنة الحق حين أيقنت بالحقيقة فاستبدلت الإساءة بالإحسان، والخبيث بالطيب، مؤمنين بحكمة القول، (سوء الاستمساك خير من حسن

---

[١]- ينظر : أوابد الشعر العربي حتى القرن الرابع الهجري : ٥٤ .

[٢]- أشعار الشعراء الجاهليين من غير أصحاب الدواوين في كتاب الأغاني للأصبهاني، توفيق ابراهيم صالح، دار غيداء للنشر، ٢٠١٢، ص١٨٤.

[٣]- ينظر : الثأر في الشعر العربي قبل الإسلام، أطروحة دكتوراه للباحث عارف عبدالله محمود مقدمة الى جامعة تكريت كلية التربية بتخصص اللغةالعربية وآدابها، ٢٠٠٣، ص ١٥١.

الصرعة) وتلقي الأمر بالحزم والشهامة أولى استدباره بالحسرة والندامة[١] لأن للأوامر حقوقاً لا يمكن للعرب أن تتنكر لها كلما اختلفت السبل تحت أقدام سائريها[٢]، إنها وجهة نظر طيبة وصادقة وصورة تعليمية، يحاول الشعراء منها أن يقدموا تفسيراً جديداً [٣] يصححون اخطائهم (ومما لا شك فيه أن هذه العواطف تحمل في ذاتها مميزات أخلاقية)[٤] لأنها صدرت عن قلوب أنبها الضمير وجرح كبرياءها الندم، وهكذا كانت ردود الفعل إيجابية حيث استبدلت نزعة الشر بما هو خير.

غنائم الندم:

وتذكر الأخبار أن ((لبني مالك مشاكلهم الخاصة مع بني عمهم من سهم بن عوذ بن مالك اذ تكشفت احدى الغزوات المشتركة عن الخلاف بين الرهطين على توزيع الغنائم دون بني مالك))[٥] وهذا ينبري الحطيئة لبني سهم القصيدة هجائية يسدل خاتمتها بالتهديد والوعيد مؤكداً فيها على تصوير فرسان مالك وخصلها وهي في حالة غضب وانفعال[٦] ولكن بعد أن استجاب الرهطين لقبول الصلح انتابه شعور الندم، مصرحاً بعتاب الذات ولومها .

لذا يصرح الحطيئة معلناً ندمه وسخطه، دعوة منه لتصحيح خطئه موضحاً ما في دواخله تلك مشاعره الصادقة، وعواطفه النبيلة، معترفاً بذنبه حين هجاه من دون حق لرجل لا يستحق الهجاء، متمنياً لو أن الشعر الذي قاله في بني سهم كان مخبوءاً في جوالق، وهذا موقف منه وهو يمر بحالة انتقالية من شاعر قادح إلى شاعر مادح ما دام

---

[١]- الإمتاع والمؤانسة، أبوحيان التوحيدي،علي بن محمد بن العباس (المتوفى: نحو ٤٠٠هـ)،المكتبة العنصرية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٤ه، ج٣، ٢١٨.

[٢]- ينظر : الحياة والموت في الشعر الجاهلي،مصطفى عبداللطيف جياووك، منشورات ضفاف، لبنان، ٢٠١٢، ص٢٠٢.

[٣]- ينظر : فن الشعر، الدكتور محمد مندور، دار القلم، القاهرة، ص٢٥.

[٤]- المصدر نفسه : ١٧٩ .

[٥]- اوس بن حجر ورواته الجاهليين، دراسة تحليلية، محمودعبدالله جادر، دار الرسالة للطباعة،، ١٩٧٩، ص٤٨٢.

[٦]- ينظر : ديوان: ٧٥ .

حياً، لذا يطلب العفو منه فهو نادم على ما بدر منه من هجاء الذي لم يكن بالمعنى الصحيح الصادق لأنه هجاه في حال وهو في حال مغاير، اذ يقول[١] :

يا ندمي على سهم بن عوذٍ ندامة مَا سفهت وضلّ حلمي

نَدِمت ندامة الكسعيّ لمّا شريت رضَا بني سهمٍ برغميّ

هنا لكم تهدّمت الرّكايا وضمّنت الرّجا فهوت بــذم

ففي هذه الأبيات الشعرية يعتصر قلب الشاعر ويعج غضباً وفوراناً بآهات داخلية تدوي صدى يهوى الحسرة والتوجع لأنها كلمة خرجت من قلب صادق ووقعت فيه، لذا يحاور الذات بكلام خفي تارة وظاهر تارة أخرى يتخيله الندم مستعيناً بالمصدر المؤكد لفعله لكي تصدق مشاعره بل عواطفه في البيت الأول حين قال ((يا ندمي على سهم ندامة)) وفي البيت الذي يليه (البيان نوعه الفعل) حين قال ((ندمت ندامة الكسعي)) موضحاً ما في دواخله من اغتراب روحي في ذل و اكسار، فهو مغلوب على أمره اذ اشترى رضى بني سهم رغماً على أنفه ومن دون قناعة راسخة .

يبدو أن الشعراء أكثر تمسكاً ببيئتهم التي عاشوا على أرضها، واختلطوا بمجتمعها، لذا كانت صورهم الشعرية مستوحاة من واقعهم فجاءت أقرب إلى الحقيقة، وأصوب في تصوير الحدث معتمدين على الرمز في بعض الأحيان لكونه ((وسيلة في منتهى الدقة والقوة في سبيل الحقيقة الشعرية)) [٢] وحلقة وصل ما بين الطرفين (الشاعر والمتلقي) فهو بمثابة الدرع الحصين الذي يحتمي به، ودرساً نافعاً مادته تجربة الحياة، لذ ايمكن القول: (من لا تجربة له يقتبس مما له تجربة) [٣] وفي ميدان الحياة اليومية .

من رموز الندم:

---

[١]-ديوانه : ١٢٢ .

[٢]- الرمز شعر احمد مطر، رسالة ماجستير للباحث محمد شكر محمود رحيم، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ١٠٢.

[٣]- الإمتاع والمؤانسة : ٣ / ٢١٨ .

فجاء الرمز عند شعراء الندم، الذين يعانون من الشعور بالذنب، وهم يحاولون التخلص من هذا الشعور[١] ولقد جسد لنا كعب بن زهير فكرته بالرمز التي استمدها من قصة الصياد الذي تسرع في تحطيم عدته بناءً على سوء ظنه، فشل رميته ولكن بعد وضوح الرؤية وجلاء الموقف الطفر بما كان يصح اليه، ندم على فعلته، بعد خيبة امل حطمت طموحه وهذه انفعالات نفسية يغلب عليها العنف اتخذ منها الشاعر مجرى فنياً لم يكن هو الأسبق في ذلك إذ يقول [٢] :

ومر بأكتاف اليدين نضيّه وللنفس أحياناً عن الموت عاجم

يعض بإبهام اليدين تندماً ولهف سراً أمه وهو نـــادم

وقال ألا في خيبة انت من يد وجذ بذي أثر بنابك جـــاذم

و أصبح يبغي نصله ونضيه فريقين شتى وهو أسفان وأجم

وفي بعض الأحيان يكون الندم باعثاً من بواعث تصحيح الخطأ و الاهتداء إلى الصراط المستقيم، والتنكر لكل سلوك مضمر منكر، وظاهر مبطن حتى تتجلى الأمور، وتظهر ما في خفايا النفوس على حقيقتها، إنها أفكار معززة بالنصح والإرشاد لمن سولت له نفسه الإساءة خوفاً عليه من الوقوع في موقف لا يحسد عليه فيعاتب الذات التي تجرأت لمثل هذا الخطأ المشين وهو يصفح في ذاكرته بحثاًوهو يصفح في ذاكرته بحثاً عن أعذار مقبولة مخالفة لإساءته [٣] لعله يثلج حرارة صدره برضى الإطار القيمي والأخلاقي [٤] معاً .

---

[١]- ينظر : التفسير النفسي للأدب،الدكتور عزالدين إسماعيل عبدالغني، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٠، ص٢٢٤.

[٢]- ديوانه : ١٦٥ .

[٣]- ينظر : مبادئ علم النفس الفرويدي : ١٠٤ .

[٤]- ينظر : المصدر نفسه : ١٠٣ .

وحين تتأزم المعاناة وينتهي الأمر إلى نمط من المعادلة التناظرية بين الانتماء لمن يحب أو عاش معاناة الحب (المرقش الأصغر) والإحساس بالسمو الإنساني فتنساب التفاصيل بفوران الذات المثقلة بالأسى والتوجع المقرن بالندم الذي دفع بالشاعر ((فعض على إبهامه فقطعها اسفاً وهام على وجهه حياءً)) [1] لأنه عاش حالة القلق الأخلاقي بسبب شعور الذات بالإثم والخجل [2] فيطلق عنانة بكلمة صادقة تفوح برائحة الندم، وكأنه يريد أن يقول أنا كنت عائشاً كالذي يحلم أما الآن فإنني أعيش في حبك بأعماق الحقيقة فلذلك قوله [3] :

أَلاَ يَا أَسْلَمِي لاَ صُرْمَ لي اليومَ فاطِمَا ولا أَبَداً مادَامَ وَصْلُكِ دَائِمَا

رمَتْكَ ابْنَةُ البَكْرِيِّ عَنْ فَرْعِ ضَالَةٍ وهُنَّ بِنا خُوصٌ يُخَلْنَ نَعائِمَا

صحَا قَلْبُهُ عنها خلا أَنَّ روعه إذَا ذكرت دارتْ به الأَرضُ دائِمَا

أَفاطِمَ لَوْ أَنَّ النِّسَاءَ بِبَلْدَةٍ وأَنْتِ بأُخْرَى لاَتَّبَعْتُكِ هائِمَا

متَى ما يَشَأْ ذُو الوُدِّ يَصْرِمْ خَلِيلَهُ ويَعْبَدْ عليهِ لاَ مَ حَالَةَ ظالِمَا

وآلَى جَنابٌ حِلْفةً فـأَطعتَهُ فَنفْسكَ وَلِّ اللَّوْمَ إِنْ كُنْتَ نادما

أَمِنْ حُلُمٍ أَصْبَحْتَ تمكُث واجِمَا وقَد تَعتَرِي الأَحلامُ مَنْ كان نائِمَا

---

[1]- ديوانه : ٦٥ .

[2]- مبادئ علم النفس الفرويدي : ٧٨ .

[3]- ديوانه : ٦٥ .

وهذا يعني أن شعراء ما قبل الإسلام عاشوا بقيمهم واخلاقهم لأنها من مرتكزات غنى المجتمع لذا هتفو بنشيدها، ونبذو الذين تجردو من أصولها وثوابتها، فالشرف في نظرهم قيمة عليا، ومبدأ سامي، فالشرف رمز المرأة وعفتها، وكرامتها وعزتها فهي من كيان خاص، لذا نالت مكانة الحظوة والتقدير لما لها من منزله كبيرة في قلوبهم، لذا اعتزوا بها أي اعتزاز، وهذا امر لم يكن بغريب في مجتمع يتبوأ فيه العرض والشرف والقمة ودونهما السفح لذا يحرص العربي على عرضه كحرصه على حياته[١] اذ ((كانوا يعدونها جزء لا يتجزأ من عرضهم))[٢] إنه الالتزام الأخلاقي الرهون بعاطفه وحمية العرض المنصبة على الحذر وسوء الظن[٣]

وقد جاءت هذه الأفكار في قصيدة القتال عند ((عبدالله بن المضرحي)) وفي الميمية التي يبرر فيها بواعث القتل لرجل اسمه ((زياد))، الذي سولت له نفسه بالإساءة، اذا اخترق القيم وتجاوز العرف، واعتدى على الشرف، ولم يكتفي بذلك القدر على الرغم من النهي والتحذير، من مغبة التطاول، وتذكير بصلة الدم والرحم إلا أنه ثابت في قرارة، مصر على اساءته، مما اثر الشاعر سيفه على عقله، وشرفه على ندمه علماً أنه يعلم سوف يندم على فعلته، اذ يقول [٤] :

نهيت زيادا والمقامة بيننا وذكرته أرحام سعر وهيثم
فلما رأيت أنه غير منته أملت له كفي بلدن مقوم
ولما رأيت أنني قد قتلته ندمت عليه أي ساعة مندم

فالشاعر هنا يتحدى ((زياداً)) لتماديه وغيه من خلال استخدامه للفعل الماضي مرتين في البيت الأول (نهيت – ذكرته) في خطاب مباشر متوعداً إياه برد فعل قاسي يسير به

---

[١]- ينظر : الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه، الدكتور يحيى الجبوري، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الخامسة، ١٩٨٦، ص٧٥.

[٢]- تاريخ الادب العربي (العصر الجاهلي)، الدكتور شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الرابعة والعشرون، ١٩٦٠، ص٧٢.

[٣]- ينظر: الجاهلية، مقدمة في الحياة العربية لدارسة الادب الجاهلي، الدكتور يحيى الجبورى، مطبعة المعارف،١٩٦٨، ص٧٥.

[٤]- ديوانه، ٧٠.

إلى نهاية المطاف أي إلى موته بل هو يمتاز في حسن استخدامه طرائق عديده يتحدى به الخصم سبباً لتحجيم سلوكه وتقويمه، وفي البيت الأخير يجعل من الفعلين (رأيت – ندمت) باعثاً من بواعث الإثارة والتأثير في نفوس اكتوت قلوبها بنيران الندم .

وتبقى العشرة و الإخاء المحبة رموزاً ثابته تدفع الشعراء لمراجعة ذواتهم والتصريح بالذنب للذين ارتكبوه والإدانة الواضحة لمن رمت سهامهم في نحورهم تسرعاً من دون إعادة نظر أو تفكير لغد بإبداء رأي، وسمع مشورة .

لذا صح القول ((ما خاب من استخار ولا ندم من استشار ولا حال من اقتصد))[١]

فتمضي حسرة الندم، وهي تجيش مخيلة لشعراء في لوم وعتاب موجه إلى الذات التي تسرعت بالشر، وتطاولت بالقتل من أقرب المقربين (أبناء جلدتهم) وعلى الرغم من أنهم يعدون أنفسهم أصحاب حق إلا أنهم ((وفي الحقيقة خربوا بيوتهم بأيديهم وقتلوا انفسهم بأنفسهم)) [٢] اذن الخسارة للطرفين، ولا رابح في القضية .

الندم ومعاناة الذات:

وقد تصل بعض قصائد الندم ذروتها من نبل العاطفة وصدق المشاعر لأنها صدرت من معاناة الذات التي خيم عليها طابع الحزن، كما جاء في قصيدة الحارث بن ظالم بعد قتله لخالد بن جعفر لذا نراه يوبخ نفسه ويؤنبها، وهو يسرد قضيته بأدق التفاصيل متأسفاً على حالة تارة وعلى الذين تكدرت نفوسهن بسبب ارتكابه الذنب تارة أخرى لأنه لم يتبع الحكمة والرأي السديد والعقل الراجح في التصرف بما قام به من فعل شنيع مرعب، لذا نجده يشبه نفسه بحال الذي يرى الماء ويتجنبه وبعلم أنه ماء، ويتبع السراب بين الشك واليقين، فهو ما بين مفترق الطرق ماء او سراب، لقد خسر أناساً أصحاب جاه وكرم

[١]- الروض الداني (المعجم الصغير)،سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي،أبوالقاسم الطبراني (المتوفى: ٣٦٠هـ)، تحقيق: محمد شكور محمود الحاج أمرير،المكتب الإسلامي، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٥ه، باب الميم – من اسمه زيد – حديث رقم ٩٧٧.

[٢]- شعر الحرب في الشعر الجاهلي، الدكتور علي الجندي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨٩، ج١، ص٣٠٢.

بفعلته هذه ولم تكن تلك الخسارة على شيء يذكر. لذا اخذته العاطفة والعصبية القلبية لان يحمل هذا الفعل الذي ندم عليه، اذ يقول[١] :

عَلَى عَمْدٍ كَسَوْتُهُما قُبُوحاً كَما أَكْسُو نِساءَهما السَّلاَبَا
وإني يومَ غَمْرَةَ غَيْرَ فَخْرٍ تَرَكْتُ النَّهْبَ والأَسْرَى الرِّغَابَا
فَلسْتُ بِشاتِمٍ أَبَداً قُرَيْشاً مُصِيباً رَغْمُ ذلكَ مَنْ أَصَابَا

فَما قَوْمِي بثَعْلَبةَ بْنِ سَعْدٍ وَلا بِفَزَارَةَ الشُّعْرَى رقابَا
وقَوْمِي، إِنْ سَأَلْتِ، بنُو لُؤَيّ بمَكَّةَ عَلَّمُوا النَّاسَ الضِّرَابَا
سَفِهْنا باتِّباعِ بني بَغِيضٍ وترك الأَقْرَبِينَ بِنَا انْتِسَابَا

سَفاهَةَ فارِطٍ لَمَّا تَرَوَّى هَرَاقَ الماءَ واتَّبَعَ السَّرَابَا
لَعَمْرُكَ إِنَّني لأَحِبُّ كَعْباً وسامَةَ إِخْوَتِي حُبِّي السَّرابَا

فَما غَطفَانُ لي بِأَبٍ ولكنْ لُؤَيّ والِدِي قَوْلاً صَوَابَا

فَلمَّا أَنْ رأَيْتُ بني لُؤَيّ عَرَفْتُ الوُدَّ والنَّسَبَ القُرَابَا

رَفَعْتُ الرُّمْحَ إِذْ قالُوا قُرَيْشٌ وشَبَّهْتُ الشَّمَائِلَ والقِبَابَا

ولا تنشأ هذه العواطف إلا بفضل التربية الصحيحة الموجهة توجيهاً سامياً والتي ترمي إلى التذكير بصلة الدم والرحم التي حرص عليها العربي حرصاً شديداً وعلى الرغم من اختلافه من أرومته في بعض الأحيان إلا أنه لا يفكر اطلاقاً بقطع تلك الأزمة[٢] مهما كان الظرف الذي يمر به لانهم أبناء جلدته، اهله واحبابه ((ومن هنا تهتز لديه القيم

[١]- شعره (ضمن دراسات في الادب الجاهلي) : ج ٢ | ٢٥٨.
[٢]- ينظر : الحياة و الموت في الشعر الجاهلي : ٢٠١ .

والمعايير التقليدية، وتتولد عنده مشاعر الغربة وأزمات الحنان والضياع)) [١] تحت ظل أجواء يسودها الندم لتماديه وغيه، ثم يسدل قصيدته بحكمة رائعة بعد أن ايقن أن القوم هم قريش، رفع السيف عنهم ومدح مائلهم وصروحهم وامجادهم .

وعلى الرغم من حرارة القلب المصدع، وانتكاسة النفس لديمومة القتل وتكراره اختمرت في نفوس الشعراء فكرة التنحي عن الثارات، وضرورة مراجعة النفوس حالت محله وأمر مهم، اذ تكونت عندهم فكرة مناقضة للفكرة القائلة: ((القتل ينفي القتل)) [٢] لأنها ايقنت وتيقنت بخسارة الطرفين كما أن المطالبة بإدراك الثأر جاءت على اثر انفعال آني مقرن بقرار غير مدروس تسفر نتائجه الندم وهذه الأفكار تطابقت مع قول الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) حيث قال ((ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد من يلمك نفسه عند الغضب)) [٣]لان النفس الإنسانية تسمو بعاطفة غير مستقرة حسب ما يتطلب الموقف اذ تمر بأزمة عنيفة وسرعان ما تميل إلى الأخلاق [٤] ونرى مصداق هذا عند قيس بن زهير، وهو يؤنب ضميره بكلمات تملاها الحسرة والندم على اسرافه في القتل، في قوله [٥] :

شفيت النفس من حمل بن بدر و سيفي من حذيفة قد شفاني

فإن أك قد بردت بهم غليلي فلم أقطع بهم إلاّ بناني

قتلت بأخوتي سادات قومي وهم كانوا لنا حلي الزمان

وتكررت الفكرة نفسها عند الشاعر نفسه وللقضية بعينها مبرزاً معاناته في رثاء خاص فريد من نوعه، ذاكراً خصاله المجيدة، ولكن تعيد الذاكرة سلسلة من ذكريات الماضي

---

[١]- تطور الصورة الفنية في الشعر العربي الحديث : ٢٦٨ .

[٢]- مجمع الامثال للميداني : جـ١ | ١٠٥

[٣]- صحيح مسلم

[٤]- ينظر : الإنسان المتمرد : ١٦٢ .

[٥]- شعره ضمن، (دراسات في الادب الجاهلي) : ٢|٣٠٦

فتأخذ الرأفة والشفقة لرجل تمادى في ظلمه حتى أجبره على فعل الشر، فكانت من البواعث التي صنعت تلك الصدود المقرن بالتجافي بين الواتر والموتور فيأتي الندم حالة شعورية لا إرادية دعوة لتصحيح الخطأ لعلها تعدل كفة الميزان بالتراضي، في قوله [١] :

تَعَلَّمْ أَنَّ خَيرَ الناسِ مَيتٌ عَلى جَفْرِ الهَباءَةِ ما يَريمُ
لقد فجعت به قيس جميعاً موالي القوم والقومُ الصميمُ
وعم به لمقتلهِ بعيدٌ وخصَّ به لمقتله صميمُ
وَلَولا ظُلْمُهُ ما زِلتُ أبكي عَلَيهِ الدَّهْرَ ما طَلَعَ النُّجُومُ
وَلَكِنَّ الفَتى حَمَلَ بنَ بَدرٍ بَغى وَالبَغيُ مَرْتَعُهُ وَخيمُ
أَظُنُّ الحِلمَ دَلَّ عَلَيَّ قَومي وَقَد يُستَجهَلُ الرَجُلُ الحَليمُ
فَلا تَغشَ المَظالِمَ أنْ تَراهُ يُمَتَّعُ بِالغِنى الرّجُلُ الظَلومُ
ولا تَعجَلْ بِأَمرِكَ وَاسْتَدِمْهُ فَما صَلّى عَصاكَ كَمُستَديمِ
أُلاقي مِن رِجالٍ مُنكَراتٍ فَأُنكِرُها وَما أَنا بِالغَشومِ
وَلا يعييك عرقوبٌ لِلَأْيٍ إذا لَم يُعطِكَ النِّصْفَ الخَصِيمُ

وعلى الرغم من إصرار شعراء الثأر على ادراك ثأرهم اعتبارات كثيرة [٢] وهذا لا يعني أن تكون هناك شعراء ينظرون نظرة بخلاف ما يعتقدون ويطنون، لانهم قد خاضوا غمارهم فوجدوا أنفسهم في ضياع، تشتت لعوائل، وقطع لرحم قادهم إلى الندم وقد تبلورت هذه الأفكار وتطابقت مع قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) حيث قال ((لا يدخل الجنة قاطع الرحم)) [٣] ولعل هذا الأمر إن دل على شيء إنما يدل على صحوة الشعراء الموتورين الذي تطبعت أفكارهم بنوايا الصلح والتراضي بين الطرفين المتخاصمين لذا يستبدلون المنكر بالمعروف والشر بالخير .

---

[١]- شعره (ضمن دراسات في الادب الجاهلي) جـ ٢ |

[٢]- ينظر : الثأر في الشعر العربي قبل الإسلام : ٨ – ٣٣ (أطروحة دكتوراه) للطالب عارف عبدالله محمود، جامعة تكريت، كلية التربية .

[٣]- صحيح مسلم .

وفي بعض الأحيان يقع الإنسان في موقف لا يحسد عليه، وهو ما بين الحياة والممات (ذل الأسر) ومما يزيد الطين بلة اذا كان هو من أصحاب الوشاية والذنب لمن لا ذنب له، ويشاء القدر أن يكون تحت رحمته وسلطته، فلم يكن لهو مخرج من الشرعية وهذا ما حصل لبشر بن أبي خازم في غربته معلناً ندمه، وشدة حزنة، طالباً عفوه، لهفوة عابرة وزلة لسان، معترفاً بذنبه، مصرحاً بتوبته، مصححاً خطأه، جاعلاً من المواثيق والعهود عنواناً لوفائه، وفيصلاً لقضيته، مؤكداً عدم تكراره لمثل ذلك الأمر مادام، في قوله :[1]

وَإِنّي لَراجٍ مِنكَ يا أَوسُ نِعمَةً وَإِنّي لِأُخرى مِنكَ يا أَوسُ راهِبُ

فَهَل يَنفَعَنّي اليَومَ إِن قُلتُ اشكر سَأَشكُرُ إِن أَنعَمتَ وَالشُكرُ واجِبُ

وَإِنّي أَهجَرتُ بِالقَولِ ظالِماً وَإِنّي مِنهُ يا اِبنَ سُعدى لَتائِبُ

وَإِنّي إِلى أَوسٍ لِيَقبَلَ عِذرَتي وَيَعفُوَ عَنّي ما حَييتُ لَراغِبُ

فَهَب لي حَياتي فَالحَياةُ لِقائِمٍ بِشُكرِكَ فيها خَيرُ ما أَنتَ واهِبُ

فَقُل كَالَّذي قالَ اِبنَ يَعقوبَ يوسُفٌ لِإِخوَتِهِ وَالحُكمُ في ذاكَ راسِبُ

فَإِنّي سَأَمحو بِالَّذي أَنا قائِلٌ بِهِ صادِقاً ما قُلتُ إِذ أَنا كاذِبُ

وقد رافقت اعتذارات الشاعر توكيداته من خلال التكرار ليعزز قوله ويثبته ويزرع الثقة في صدر من هجاه (أوس بن لام) ففي البيت الأول والثاني والثالث والرابع والسادس والسابع وردة إن المؤكدة المسند بالضمير ست مرات (إني – و إني – إنني – أني – إني) ليؤكد التزامه بما يقول بعد اطلاق صراحه وتأتي لام التوكيد لتقطع كل شك أو يقين في اربع مرات في البيت الأول والثالث والرابع (لراج – لأخرى – لتائب – لراغب) فجاءت لغته تحمل كل معاني التعبير الدقيق وكأنه فنان عظيم يخاطب ((النفوس على اختلاف

[1]- ديوانه : ٤١- ٤٢

طبائعها و ميولها فيشعرها أنه يتحدث بلسانها وينطبق بما في قلبها)) [١] وتلك طريقة الشاعر، وقدرته على الاقناع بشيء يثلج الصدر، ويخفف الغضب ليكسب عطف المخاطب فاللغة هي ((ليست اكثر من أداة للتعبير عن المعاني والخواطر والخوارج)) [٢] المخزونة في دواخل النفس فهي اشبه بالسلاح الذي هو في غمده يمتشق في لوقت الذي يراه مناسباً للدفاع بكلمة طيبة، جياشه مؤثرة.

الندم ونشوة الفخر:

وقد يبلغ الفخر من شعراء العرب ذروته ايضاً لأن فيه ذكراً لخصالهم من شجاعة وإقدام وقوة وبطش، تحتلكها خطط حربية وتؤهلهم للغلبة وكسب الحرب فضلاً عما يحصل للمقابل من خيبة وندم وفشل للنوايا الخبيثة .

وينفرد من بين هؤلاء الشعراء، ربيعة بن مكدم ليحكي قصته وظرفه في حوار قصصي مفتوح يسترعي به انتباه الناس، ويشدهم نحو الحدث، وهي يدلي بحقيقة موقفه، بشاهد عيان قد عاش معمعة الوغى (ظعينته) منفذاً فنياً يطرح من خلاله مواقفه النبيلة وبطولاته وهو منتقض ثائر، غيور مغوار، مستخدماً الإستفهام التصديقي بالأداة (هل) لكي يصدق نفسه، من اجل قضيته، حماية شرفه وعرضه، مستعيناً بالأداة (لولا) كحرف امتناع لوجود، ليثبت وجود الظعينة وسلامتها بفعل وجود الفارس المغوار الذي شتت جمع الخضم فجعلهم ما بين قتيل وجريح بعد أن كانوا يهددونه بسوء العاقبة وغبة الوقوع في موقف تتخلله الحسرة والندامة، لذا ((مضى يتغنى مفتخراً بحفاظه وجرأته)) [٣] اذ يقول: [٤]

إن كان ينفعك اليقين فسائلي عني الظعينة يوم وادي الأخرم

---

[١]- الصورة في شعر بشار بن برد : ٢٨٧ .

[٢]- الصورة في شعر بشار بن برد : ١٠١ .

[٣]- أيام العرب واثرها في الشعر الجاهلي : ١٣٠ .

[٤]- شعره : (ضمن دراسات في الادب الجاهلي) جـ ٢ |

هل هي الأول من أتاها نهزة لولا طعان ربيعة بن مكدم

إذ قال لي أدنى الفوارس ميتة خل الظعينة طائعا لا تندم

فصرت راحلة الظعينة نحوه عمدا ليعلم بعض ما لم يعلم

وهتكت بالرمح الطويل إهابه فهوى صريعا لليدين وللفم

ومنحت آخر بعده جياشة نجلاء فاغرة كشدق الأضجم

ولقد شفعتهما بآخر ثالث وأبى الفرار عن العداة تكرمي

وقد يكون التهديد عند الشعراء العرب باباً من أبواب دفع الأذى لكونه الوسيلة الدفاعية التي من جرائها يزرع هاجس الخوف في صدور الخصم، فهي تارة يأخذون من جانب قومهم برفع شأنهم وتعظيم أعمالهم، وتجميد بطولاتهم وتارة أخرى يقلل من شأنهم ويحط من قدرهم [1] لأنهم أبناء جلدته يحن اليهم، وفي الوقت نفسه يسخط لخطئهم لكي لا يقعوا في مهاوي الردى ويشربوا من كاس الندم بدموع حارة وفي مثل هذا يقول نهشل بن حري، وهو يغني بمفردتي الحرب والندم [2]:

بني قطن إني عبدت بيوتكم برهوة دارا أو أعز و أكرما

فلا تنزلوا من رأس رهوة داركم إلى خرب لا تمسك السيل أثلما

أناس إذا حلت بواد بيوتهم نفى الطير حتى لا ترى الطير مجثما

تظلل من شمس النهار رماحهم إذا ركز القوم الوشيح المقوما

ترى كل لون الخيل وسط بيوتهم أبابيل تعدو بالمتان وهيما

وذي عزة أنذرنه من أمامه فلما عصاني في المضاء تندما

فود بضاحي جلده لو أطاعني إذا زلوا عروري به الأمر معظما

وفرق بين الحي بعد اجتماعهم مشائيم دقوا بينهم عطر منشما

---

[1]- ينظر في تاريخ الادب الجاهلي : ٤٣٣ . (علي الجندي)

[2]- شعره ضمن (عشرة شعراء مقلون) : ١٢٩ .

غواة كنيران الحريق تسوقه شآمية في حائل العرب أصحما
إذا لهب من جانب باخ شره ذكا لهب من جانب فتضرما
وفي الناس أذراب إذا ما نهيتهم عن الشر كالنشاب ينزع مقدما
جزى الله قومي من شفيع وطالب عن الأصل والجاني ربيعا وأنعما
ولوأن قومي يقبل المال منهم لمدوا الندى سيلا إلى المجد مفعما
لما عدموامن نهشل ذا حفيظة بصيرا بأخلاق امرئ الصدق خضرما
حمولا لأثقال العشيرة بينها إذا أجشموه باع مجد تجشما
ولكن أبى قوم أصيب أخوهم رقى الناس واختاروا على اللبن الدما
أرى قومنا يبكون شجو نفوسهم وقد بعثوا منا كذلك مأتما
على فاجع هد العشيرة فقده كرور إذا ما فارس الشد أحجما
فإذا جلت الأحداث وانشقت العصا فولى الإله اللوم من كان ألوما

هكذا جاءت قصيدة (الميمية) للشاعرة وهي تلوح بالتهديد الصريح الموجه إلى بني قطن من شاعر القوم نهشل، ويدعوهم الكف على الإثم، وما يضمرون من عداء لكي لا يندموا، فهي من فنون الحرب، ووسيلة من الوسائل التي تزع في نفوس الأعداء فعل التردد عن قرار غير مدروس اذا كانت نواياهم تحمل طابع التفكير بالإغارة، لذا يناشدهم بالتأني ولكن على الرغم من التوجيه والإرشاد إلا أن الخصم انفرد بقراره واصر على فعلته التي اسفرت نتائجها عن الويل والثبور الثقل بالندم، لذا يوصي الشاعر إلى التمسك بفعل الخير ونبذ الشر، والانصياع لأمر الواقع وتناسي قضية الثأثر، هكذا نسج الشاعر صورة الحزن التي خيمة افئدة الطرفين حتى يستدل خاتمة الحديث وهو يلوم قومه لرفضهم قبول الدية، وتسوية الخلاف بطرائق السلمية.

الندم وضوابط التشريع:

وبات يقيناً أن طبيعة حياة المجتمع العربي قبل الإسلام لا يمكن أن تستقر مالم تكن هناك ضوابط وأحكام دستور مشرع، وملك غيور منضبط يقوده و يرأسه على وفق امتثاله للقيم النبيلة وتمسكه بالثوابت من عدل وإنصاف، واحقاق لحق، واحترام لمشاعر، فكيف

لملك جبار قد صعر خده، وتمادى في غيه وجار بظلمه، وهو بلا شك سوف تنقلب الأمور على عقب، فتثور النفوس غيضاً بكبرياء لتثأر وتنتقم .

وهذا ما حصل للحارث بن ظالم من اعتداء لشخصه مما أدى إلى ردود الفعل بالانتقام ممن بدأ بظلمه لذا يوجه صوب خطابه إلى أبناء جلدته (أهله وأحبائه) بعد قتله لشراحيل بن النعمان بن المنذر في حوار مفتوح ليدلي حقيقة أمره وسبب ارتكاب فعلته، لذا يأمرهم بالوقوف والسماع لمشكلته من خلال استخدامه لفعل الأمر ((قفا – فاسمعا)) ليتلمس من الأحباب والأهل بوادر الحل على الرغم من ايمانه بقضيته وقدره فهو امام المحك طالب ومطلوب، واتر وموتور، وكلاهما تكلان نادم على أثر فعل وردود فعل ثم يطلق عنان فخره بنفسه، ووقوفه بوجه ذلك الغشوم الجائر، ليكن عبرة لمن يعتبر، فهو مصر على القتل غير نادم مهما كان وراء المقتول من قوة، اذ يقول [1]

قفا فأسمعا وأخبركما إذا سألتما محارب مولاه وتكلان نـادم
فأقسم لو لا من تعرض دونه لخالطه صافي الحديدة صارم
حسبت أبا قابوس أنك سالـم ولما تصب ذلا، وأنفك راغم
علوت بذي الحيات مفرق رأسه وهل يركب المكروه إلا الأكارم
فتكت به كما فتكت بخـــالد وكان سلاحي تجتويه الجماجم
أخصيي حمار بات يكدم نـجمة أتأكل جيراني وجارك سالم
بدأت بهذي ثم أثني بـــهذ وثالثة تبيض منها المقادم
شفيت غليل الصدر منه بضربة كذلك يأبى المغصبون القماقم

الندم وأثر الهجاء:

وما للهجاء من وقع على النفوس وجرح لكبريائها لذا يتحاشى بعضهم التعامل به كسلاح مشحون بالطعن ولتجريح، وتجريد المقابل من كل ما يرفع من شأنهم ويعزز من شخصيتهم إلا اذا كان الهجاء معد كوسيلة ضغط لإيقاف التمادي والعدوان من خلال

[1]- شعره ضمن (دراسات في الادب الجاهلي) : ٢/٢٦١ .

التهديد والوعيد المبق كحرب إعلامية تحمل خطة حربية رادعة تجنبهم الدخول في حرب فعلية .

وهذا ما كابده وذاق مرارته سويد بن أبي كاهل، ولكن تبقى حسرته تلم شتات الحزن في غربة ولا تطاق ولا تهدأ إلا برد اعتبار على إثر إساءة قدر وقعت فيه من قبل عامر بن مسعود لذا يعلمه ويخبره بأنه سوف يوجه رسالة تهديدية فيها من الوعود بالرد على بني شيبان، فهو لا يمتثل لأوامره، ويخضع لقراراته مفتخراً بذاته مزهواً برفعته لأنه من أصل كريم، وله حضور دائم، ورجل لا يغيب لذا يتوعد الخصم برفعته لأنه من اصل كريم، وله حضور دائم ورجل لا يغيب لذا يتوعد الخصم بالانتقام ثأراً لكرامته ويعلمهم أنهم سيندمون جراء فعلتهم هذه، اذ يقول [١] :

يكف لساني عامر وكأنما ... يكف لسنا فيه صاب وعلقــم
أتترك أولاد البغايا و غيبتي ... وتحبسني عنهم ولا أتكلـــم
ألم تعلموا أني سويد و إنني ... اذا لم أجد مستأخرا أتقـــدم
حسبتم هجائي اذ بطنتم غنيمة ... على دماء البدن أن سوف تندموا

لقد نجح الشاعر في التعبير عن معاناته الشخصية مع خصمه عامر بن مسعود وهي حالات وجدانية لها تأثير بليغ في نفسيته وتبقى راسخه في سجل ذكرياته،لذا تتعالى صيحاته جرس موسيقي يدق وصدى يدوي بكل دواعي الحزن والم الحسرة ((ولم تعد موسيقى الشعر مجرد أصوات رنانة تروغ الأذن بل أصبحت توقيعات نفسية تنفذ إلى صميم المتلقي لتهز اعماقه في هدوء ورفق))[٢]،أحياناً وفي شجب وسخط في احايين أخرى، من خلال تكراره للفعل المضارع (يكف) ومفعوله (لساناً) في عجزه وتحمل في اثنائها صورة شعرية عن طريق السمع قد ذاب صداها في نغمة موسيقى ورنة إيقاع مؤثر، دعوة لأطلاق لسانه في التعبير عن رأيه، بحريته المكبوتة، وهو يستفهم بصيغة

[١]- ديوانه : ٣٩ .
[٢]- علم النفس والحياة (التفسير النفسي للأدب) : ٦٢ .

الإنكار مرتين ففي المرة الأولى ينكر عليه فعلته وعدم عدالته حين يعطي الفرصة لأناس وصفهم باليغايا وهم فعلاً دون المستوى ويلجم من هوى اهل للحديث وابداء الرأي وطرح الفكر من خلال عباره (اتترك أولاد البغايا غيبتي) وفي المرة الثانية يستفهم بالطريقة نفسها (ألم تعلموا) مقرنة بالنفي دعوة لإثبات الوجود وإظهار القدرات، مفتخراً بنفسه مؤكداً إمكانيته في (إني) و

(إنني) ليظهر على ملأ الناس أنه الأول والأخر في قومه، فهو يقول الحق ولا يسكت على باطل،مهيئاً نقيضته الشعرية فارضاً رأيه متوعداً خصمه بعواقب وخيمة نهايتها الندم.

ولم يقتصر شعراء العرب قبل الإسلام حديثهم عن الحرب الإعلامية دون غيرهم بل كان لهم في الميدان الحربي الفعلي حضور أوفر ونصيب أكبر. وللفرسان المقام الأرفع والمكانة الفضلى بين عشائرهم وقبائلهم لأنهم عنوان الشجاعة وملاذ القبيلة، وحماتها عند اشتداد اوار الحرب، وكانت الفروسية حديث الناس وأقاصيصهم [1]لأنها رمز وجودهم وبقائهم بوصفها ((بطولة إنسانية بشرية تستمد وجودها وحياتها ومظاهرها من واقع الناس))[2] كرصيد مضمون عند الطوارئ غايتها الذود عن حياض القبيلة اذا تعرضت إلى عدوان من قبائل المجاورة، وهكذا كانت اخلاق العرب وصفاتهم فهم لا يقبلون، وعزة وكرامة، وكبرياء وشموخ وهي فلسفة اختمرت في نفوسهم دفعتهم إلى روح التضحية والاستبسال .

وقد تبلورت هذه الأفكار وتأقلمت في نفوس حامليها لمن خاضوا غمار الحرب بهمة الغيارى للمحافظة على روح النصر بكبرياء لا تتلم لذا تصدوا لمن عاداهم.

الندم وتفرد الطغيان:

وينفرد عنترة بن شداد العبسي من بين هؤلاء الفرسان ليعطي صورة حقيقية لحرب ضروس قد كابد معاناتها وعاش ظروفها، لذا امتزجت عنده فكرتا القول والفعل في صف دقيق لهول المعركة بعد انجلاء الموقف، وهو ينظر إلى الخيل ساهمة الوجوه، إلى

[1]- ينظر : الفروسية في الشعر الجاهلي ، د . نوري حمودي القيسي، ط ١، ٢٠٠٤ م: ٩٠ .

[2]- تحقيقات في اللغة والادب : ١٧٤ .

فرسانهم في موقف صعب لا يحسدون عليه وعلى الرغم من ذلك فهو واثق الخطوة غير نادم من خوض غمارها مهما كلف الأمر ذلك، إذ يقول [١]:

إن المنية لو تمثل مثلت مثلي اذا نزلوا بضنك المنزل
والخيل ساهمة الوجود كأنما تسقى فوارسها نقيع الحنظل
واذا حملت على الكريهة لم اقل بعد الكريهة ليتني لم أفعل

ومن يتصفح سلسلة ذكريات الشعراء الحربية ذكريات نفسه هو المهلهل بن ربيعة التغلبي متحدثاً عن ظروف أحاطت به فكبلته، وجعلته يعيش غربة الذات في صراع نفسي، بحثاً عن وسيلة أو مخرج يفك بها هازمته، بكلمة صادقة تدفع عنه البلاء، فوجد بالصدق نجاته، وهو يرسم صورة الحدث تحت ظل متقاطع، متدفق ومختلف، وفي الوقت نفسه، فجاءت حنكته ترسم خطواتها بخطة ذكية شعارها الموقر ((الغاية تبرر الوسيلة)) [٢]وصولاً لغاية منشودة، وهو النجاة من قبضة الأسر، وهو يرسم صورة الندم التي يحملها الخصم لعدم تشخصيه الدقيق ومعرفته به قبل إعطاء العهود والمواثيق لإطلاق صراحه، اذ يقول [٣] :

لهف نفسي على عدوي ولم عرف عدياً اذا أمكنتني اليدان
طل من طل الحروب ولم يهلك قتيل أبا به أبـــان

لقد انغرست في نفوس الشعراء العرب بذرة الإيمان، ونظروا إلى الحياة الفانية نظرة تحسب وتحوط خوفاً من الوقوع في مهاوي الردى والهلاك فتلحقهم الندامة لعدم استثمارهم الحياة بشكل دقيق بما هو خير في ذكر حسن، ويمكن أن يكون استخلاص نتيجة عن مدى معايشة الشعراء للموت أو ميلهم إلى هذا العنصر الطبيعي بالذات من دون سواه وتؤول قطعة المناجاة حينئذ كنبذ للواقع ورفضه أو تسأل عن الطبيعة البشرية [٤] فهل من الممكن أن يتعايشوا معها ويتألموا لواقعها، على وفق ما يرتضون ويرغبون ؟ وهؤلاء

---

[١]- ديوانه : ٢٥٢ .

[٢]- الشعراء الصعاليك

[٣]- المهلهل بن ربيعة التغلبي، حياته، شعره، نافع منجل رسالة ماجستير .

[٤]- ينظر : نظرية البنائية في النقد الادبي : ٢٠١

ينظرون نظرة تأمل لغد مشرق ومزهر بكل ما يعزز وجودهم بحياة مليئة بالقيم الأخلاقية العالية والقيم الاجتماعية النبيلة المعززة بالإباء والأنفة في ظل حياة حرة كريمة .

الندم والبناء:

يحاول الشاعر زهير بن أبي سلمى أن يزرع الثقة في نفوس ذويه وصحبه داعياً إياهم الإيمان بقضاء الله وقدره وعدم التفكير بالهزيمة من الموت لأنه ملاقيهم أينما كانوا، وواقع لا محالة، ناصحاً أبناء قومه على أن لا يكونوا صغار النفوس، أذلاء تحت أيادي هؤلاء الذين هم قادرون على صنع المعروف وفعل الخير ولكن لم يفعلوه، لذا سوف يصيبهم الندم جراء سلوكهم هذا وعدم إيمانهم، اذ يقول [1] :

من هاب أسباب المنية يذله ولو رام أسباب السماء بسلما
ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله على قوم يستغن عنه ويذمم
ومن لا يزال يسترحل الناس نفسه ولا يعفها يوماً من الذل يندم

وقد حقق الشاعر في أبياته الثلاثة على التكرار الصوتي بوسائل عديده ويمكن أن نشخصها على أساس وصفي خالص في أمور كثيرة، أولها: تكراره لمن الشرطية المقرنة بفعل الشرط وجوابه (من هاب) و (ينلنه) دليل إثبات قاطع لا جدوى للخوف من الموت لكونه قدر محتوم لا بد منه . وفي البيت الثاني (من يك ذا فضل) (فيبخل) وهي جملة شرطية يتخللها النصح و الإرشاد الموجه للمرء بأن لا يتعامل المحتاج مع رجل غني توسمت أفعاله بالبخل .

وفي البيت الثالث (من لا يزل) و (يسترسل) جملة شرطية تحمل كل مرات ولعل هذا التكرار الصوتي دون أخر ((في بناء الصورة الشعرية، إلى توفير إيقاع موسيقي اخر في كل بيت على حدة))[2] من خلال تقسيم شعري منسق على وفق سياقات تجربة الشاعرة وما تحملها من عواطف.

---

[1]- شعره : ١٠٥ .

[2]- قضايا الشعر في النقد العربي : ٤٣ .

ويبدو أن ((التجارب الكثيرة التي خاضها الشعراء الفرسان، واظهروا فيها قابليات رائعة، ألهمتهم الثقة والوصف، والحس في التصوير، والإجادة في التركيب الشعري لأنها من الواقع كانت تمثل المحور الأساس الذي تدور عليه الحياة الجاهلية))[١] التي قد غلب عليها الطابع الحربي من كر وفر، وغزو وغارة، أسفرت نتائجها بالويلات والثبور، بالعواقب الوخيمة من قتل وأسر وذل وإهانة فاللغة بتشعب أفكارها وتراكيبها ما هي إلا مرآة تنعكس فيها حياة الأمة التي تتكلمها وتتحاور فيها .

ونجد مصداق هذه الفكرة عند سحيم عبد بني الحواس، وهي يكثف فكرة معاناته في غربة روحية لا تطاق بحثاً عن حلول جادة لفك أزمته التي ذاق من جرائها مرارة العذاب والتعذيب وسوء المعاملة لكونه مكبلاً بالقيود بلا حول ولا قوة، لذا يناشد الخصم ويطلب منه النظر في موقفه، من ذلك العفو عنه وإطلاق سراحه في حوار قصصي تضمن معانيه مراجعة الذات، مع عدم التسرع في اتخاذ القرار بقتله لأنها تعد خسارة الطرفين لما يحمله من نسب كريم وسجاعة منقطعة النظير، فبقتله ندامة، وكثرة البكاء، وتجافي لأهل وأصدقاء، اذ يقول [٢] :

فما السجن إلا طل بيت سكنته وما السوط إلا جلدة خالطت جلدا
أبا معبد والله ما حل حبها ثمانون سوطاً بل تزيد فيها وجداً
فإن تقتلوني تقتلون ابن وليدة وإن تتركوني شركوا اشداً وردا
غدا يكثر الباكون منا ومنكم وتزداد داري من ديباركم بعـدا

ففي هذه الأبيات تبرز معاناة الشاعر، التي كدرت خواطره، وحطمت وأصوب إلى الصواب، مستعيناً بأسلوب النفي بالقصر (ما السجن إلا طل بيت) و (وما السوط إلا جلدة) فهو قد قصر الصفة على الموصوف بأداء فني جميل ومبدع حين قصر العقوبة على نفسه لا على غيره من خلال الضرب والجلد، مستطرداً عدد الضربات (ثمانون سوطاً) ولا يكتفي بهذا القدر بل اتخذ من (إن) الشرطية في البيت الثالث المقرنة بفعل الشرط وجوابه الجازم (أن تقتلوني) (تقتلون) و (أن تتركوني) (تتركون) حواراً قصصياً

[١]- الفروسية في الشعر الجاهلي : ١٩٣ .
[٢]- ديوانه : ٦٦ - ٦٧

يحتوي على كل وسائل الإقناع والتأثير هو سلوك مقبول وفيه من الشرعية لإنقاذ روح مهددة بالخطر والباطل .

ان هذه التراكيب اللغوية المتداخلة بعضها مع بعض تعطي ابعاداً بصورة شعرية مرسومة بضمير حي ينبض ويتململ إنها جهود جبارة خفية تتشبث إلى ابطال مفعول ما كان يضمر خوفاً من عدم قبول المال لعتق رقبة او إطفاء لديون الثأر .

إذن أن المال هو رمز الحياة واساس الوجود فبغيابة تتوقف وتتعطل، بوجوده تستقر وترتقي، لذا انتاب الإنسان الشعور بالأخرين والإحساس بكل جوارح وألم البشر وعلى وجه الخصوم الذين ذاقوا مرارة الجوع وقسوته وبهذه المعاني يشرق شعر بشر بن أبي خازم، وبهذه الإنسانية ترتسم شخصيته صورة أفعاله إذ هو لا ينظر إلى المادة إلا ملك زائل ولا إلى الحياة وإلا بذل وعطاء وكسب لمحامد لأنه بوساطتها يقضي حوائج الفقراء والمحتاجين، مؤكداً أفعاله بالقسم ليثبت حقيقة ما يقدم للناس وما يفعل لذا عاهد الذات على ترك القسم للناس، ولا يقسم ابداً حتى وإن أدى به الأمر إلى الإثم او الندم اذ يقول [1] :

ألا إن خير المال ما كف أهله عن الذم أو مال وقى سوء مطعم
لأمنع مالاً ما حييت بألوة سأمنعه إن سرني غير مقسم
وأتركها للناس إن اجتنابها سيمنعني من مأثم أو تندم

وتعد الحكمة في أغلب الأحيان سيدة الموقف، والمنفذ المختار إلى بر الأمان لما تضمنته من أفكار مدروسة وحقائق يقينه فهي أشبه بالتنبؤ بالحدث قبل وقوعه، وأقرب إلى اليقين لقربه من واقع الحال، لذا يتخلل كلام الشعراء نوعاً من الحكمة فلسفة خاصة تجاه الحياة والموت بنظرة بعيدة، وتحسب في كلام خوفاً من الوقوع في أزمة لا يحمد عقباها وفي مثل ذلك لا يجدي الندم .

[1]- ديوانه : 137-136 . الألوة : الحلف واليمين .

لذا اختمرت هذه الأفكار في مخيلة طرفة بن العبد، وهو يسرد لنا نصائحه بدراية وعلمية وبفكر صائب حيث يقول للعاقل أن يتحدث بكل ما فيه، وفي مثل هذا الموقف لا ينفع الندم لأنها خرجت عن إرادة الذات بلا عودة تذروها الرياح من كل حدب وصوب، وكما ينبغي أن لا تظهر ما في نفسك إلا بعد وضع الخطط المحكمة والمدروسة لتنفيذه، فالعاقل هو الذي يدرس امره ويتعمق فيه، في هدوء وصمت من دون ثرثرة لكي لا ينزلق لسانه إلى ما قد يسبب له الندم، اذ يقول [١]:

وفي الكلام كلام ما نطقت به إلا ندمت عليه حين أبديه
وان ندمت فإني لست أرجعه وكيف أرجعه والريح تذريه
لا تظهر الأمر إلا حين تحكمه وكيف يحكمه من ليس يخفيه

وفي نهاية البحث لا بد من التلميح والإشارة إلى أن هناك كماً لا بأس به من النصوص الشعرية التي تخصصت بموضوع الندم ومنها على سبيل المثال ينظر: شعر النابغة الذبياني [٢] وينظر: شعر قيس بن زهير [٣] وينظر: شعر بن الخطيم [٤] وينظر: شعر زهير بن أبي سلمى [٥] وينظر: شعر الأعشى الكبير [٦] وينظر: شعر علباء بن أرقم [٧].

الخاتمة

وبعد استقرائنا لنصوص شعر الندم عند شعراء العرب ما قبل الإسلام، رأينا أنه يأتي بكثرة عندهم، ولأن العرب عرفوا بكثرة الحروب في منطقتهم، وجدنا لهذا الموضوع حضوراً متميزاً في شعر الحرب لديهم، ولا سيما فيما يتعلق بقضية الثأر وذلك لتمسك العرب بهذه

---

[١]- ديوانه : ٢٣٦ .
[٢]- ديوانه : ١٩٩ – ٢٠٠ .
[٣]- شعره | ضمن (دراسات في الادب الجاهلي) ٢| ٢٩٧ .
[٤]- ديوانه : ٢٣٦
[٥]- شعره : ١٦٥ .
[٦]- ديوانه : المعلقة.
[٧]- الاصمعيات : ١٥٧ – ١٥٨ .

العادة وكان لغياب السلطة اثر في ذلك حيث لا حكومة تردع ولا قوانين تلزم ولكن على الرغم من تمسك العرب بالثأر واصرارهم على ادراكه لذا نرى على وجوههم ملامح الندم وعلى عيونهم دمعة الحسرة لتسرعهم وقلة تفكيرهم ويأتي الندم في مواقف متفرقة أخرى ندمهم وحسرتهم لوقوعهم في معترك الأسر وذله، وما للمال من وجود انساني وخدمة إنسانية وموقف، ولم تكن هذه النصوص الشعرية التي تتعلق في بحثنا (الندم . بين البناء والهدم . عند شعراء قبل الإسلام) إلا عينات لموضوع مستقبلي يستحق البحث والدراسة.

Regret between building and demolishing among pre-Islamic poets

Dr. Azad Abdul Rashid, Dr. Nawal Numan Karim Ahmed

Abstract

After our interpretation of the texts of remorse at the pre-Islamic Arab poets, we found a distinctive presence in the poetry of war, especially with regard to the cause of vengeance, to adhere to the Arabs in this habit and the absence of power in this effect, where no government deterrent and no laws are required, but despite the Arabs' attachment to revenge And their insistence on understanding so we see on their faces the features of remorse and their eyes tear tears to accelerate them and lack of thinking, and comes regret in other positions and other remorse and loss of their presence in the family and the family, and the money of human existence and humanitarian service and attitude, these were not poetic texts that relate to our research (Remorse) between sons The demolition of poets before Islam only samples of the subject of future worthy of research and study .